﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

[الأنفال: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّرغيبُ بالتَّقوى ونتائجِها بعدَ التَّحذيرِ من الخيانةِ وأسبابِها، مُكنةٌ نفسيَّةٌ وإقناعٌ خطابيٌّ

لما حُذِّر المؤمنونَ من المخالفةِ والخيانة في قولِه تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ ومن فتنةِ الأموالِ والأولاد في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾؛ ناسبَ أن يأتيَ التَّرغيبُ بالتَّقوى وفضلِها وثوابِها في مقابل ذلك، فقال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾.

كما يظهرُ حسنُ المناسبةِ بين الآيةِ وما قبلَها من خلالِ أنَّها رتَّبت على المنهيّاتِ تحذيراتٍ من شرورٍ وأضرارٍ من قوله: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ﴾ [الأنفال: 22] وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنفال: 25]، ورتَّبَ على التقوى: الوعدَ بالنَّصرِ ومغفرةَ الذُّنوب وسعةَ الفضل[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فُرۡقَانٗا﴾: الفاءُ والرّاءُ والقافُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمييزٍ وتزييلٍ بينَ شَيئين، والفرقُ: فصلُ بعض شيءٍ أو أشياءَ من بعضِها الآخرِ فصلًا واصلًا إلى العمقِ، ومنه: فرقتُ بين الشَّيئين وفرَّقتُ، والفُرقانُ بالضَّمِّ مصدرٌ كالغفرانِ والشُّكرانِ، ومن معانيه أيضًا: الحجَّةُ والقضاءُ والفصلُ والحكمُ والفتحُ والنَّصرُ والمخرجُ والفرقانُ في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: 1]، هو القرآنُ؛ لأنَّهُ يفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ ويبيِّن كلَّ شيءٍ، والتَّبيينُ فصلٌ وتمييزٌ، وسمّي يومُ بدرٍ الفرقانَ؛ لأنَّهُ فصَّل، وميَّز المحقَّ من المبطلِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325 - 326.

وفرقانًا: خروجًا من الشَّكِّ والشُّبهاتِ، ونورًا قلبيًّا يخرجُ بهِ المتَّقي من ظلماتِ الضَّلالاتِ[1].

ومعنى ﴿فُرْقَانًا﴾: نصرًا أو بيانًا وظهورًا أو مزيَّةً لهم في الدُّنيا والآخرةِ أو مخرجًا من الشُّبهاتِ وتوفيقًا وشرحًا للصُّدور، وكلُّ ما فيهِ نجاةٌ واستقامةُ أحوالِ حياتِهم[2].

2) ﴿وَيُكَفِّرْ﴾: الكافُ والفاءُ والرّاءُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مَعْنى واحدٍ، وهو السَّترُ والتَّغطيةُ، وكلُّ ما غطَّى شيئًا، وكلُّ من سترَ شيئًا، فقدَ كفرَهُ، ويقالُ للزّارعِ: كافرٌ؛ لأنَّهُ يكفِّرُ البذرَ، أي: يغطّيهِ ويسترُهُ بالتُّرابِ، والكُفرُ: ضدُّ الإيمانِ، فهو تغطيةٌ للحقِّ، وتكفيرُ السَّيِّئات: سترُها وتغطيتُها، فلا تُرى، ولا يُؤاخذ عليها[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّقوى ملاكُ استقامةِ الأمم وزادُ المغفرة وتكفيرُ الخطايا

كرَّرَ اللّهُ الخطابَ بنداءٍ حملَ معنى الاهتمامِ، والوصفُ بالإيمان حرَّكَ فيهم مشاعرَ العملِ، يأمرُهم بالتَّقوى زادِ المؤمن الذي تحيا به القلوبُ، وتستعينُ بهِ على حملِ الأعباءِ الثِّقال، ومواجهةِ وساوسِ الشَّيطان، وعبَّر عن الأمرِ بها بأسلوبِ الشَّرط الذي يفيدُ الدَّوامَ ترغيبًا بها وبيانًا لحسنِ حالِ عاقبتها، ووعدًا بدوامِ النَّصرِ واستقامةِ الأحوالِ؛ إن هم داوموا عليها، وبذلكَ يبيِّنُ حقيقةً مهمَّةً، هي أنَّ التَّقوى تجعلُ في القلبِ فرقانًا، أي: نورًا ينيرُ البصيرةَ، ويرفعُ اللَّبس، ويكشفُ ظلماتِ الطَّريق، حتى يكونوا مطمئنّي البالِ منشرحي الخاطرِ، وذلك يستدعي أن يكونوا منصورينَ، غالبينَ، بصراءَ بالأمورِ، سائرينَ في طريقِ الحقِّ والرُّشدِ، وذلك هو ملاكُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فرق)، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/83.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/357، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/326.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كفر).

استقامةِ الأمم[1]، ثمَّ يجعلُ سبحانه التَّقوى زادَ المغفرةِ للخطايا، الزّادَ المطمئنَّ الذي يسكبُ الهدوءَ والقرار.. ويذيِّلُ الآيةَ بزادِ الأملِ في فضلِ اللّهِ العظيم يومَ تنفدُ الأزوادُ، وتقصرُ الأعمال.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاسْتِئْنافِ بجملةِ النِّداءِ:

الخطابُ بوصفِ الإيمانِ تذكيرٌ بعهدِ الإيمانِ وما يلزمُ عنهُ مِنَ التَّقوى

الاستئنافُ في الآيةِ هو استئنافٌ ابتدائيٌّ متَّصلٌ بالآيات السّابقةِ ابتداءً من قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ [الأنفال: 20] وما بعدهُ من الآيات إلى هنا[2]، افتتحهُ اللّهُ بالنِّداء اهتمامًا بحال المؤمنين، مخاطبًا إيّاهم بوصفِ الإيمان تذكيرًا لهم بعهدِ الإيمان وما يقتضيه[3].

علَّةُ تَكرارِ جملةِ النِّداء:

تَكرارُ النِّداءِ تأكيدٌ وتنبيهٌ لمكانةِ التَّقوى الَّتي ينبغي للمؤمنِ أن يلتزمَها

كرَّر الخطابَ والوصفَ بالإيمانِ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بما بعدَهُ، وهو الأمرُ بالتَّقوى الَّتي هي ملاكُ استقامةِ الأفرادِ والأممِ، وذلك لما تحملُهُ معاني النِّداءِ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ من الاهتمامِ والتَّأكيدِ والتَّنبيهِ والتَّدرُّجِ من الإبهام في (أي) إلى التَّوضيح، والتَّعظيم للمنادى، بل تعظيمِ الأمرِ الَّذي نودوا بهِ، وللإيذانِ بأنَّهُ ممّا يقتضي الإيمانُ مراعاتَهُ والمحافظةَ عليه، مع ما في هذا الوصفِ بالإيمانِ من استثارةِ بواطنِهم وتحريكِ مشاعرِهم وتهيئتِها لتقبُّلِ ما نودوا بهِ[4].

غرضُ الأمرِ بالتَّقوى بجملةِ الشَّرطِ:

وجودُ الفرقانِ وزادُ المغفرةِ والفضلِ العظيمِ متعلِّقةٌ بالدَّوامِ على التَّقوى

عبَّرَ عن الأمرِ بالتَّقوى بجملةِ الشَّرطِ ترغيبًا بالتَّقوى، وبيانًا لحسنِ حالِ عاقبتِها، ووعدًا بدوامِ النَّصرِ واستقامةِ الأحوالِ إن هم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/326.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/263، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18.

داموا عليها؛ ذلك لأنَّ من أغراضِ فعلِ الشَّرطِ أن يُرادَ بهِ الدَّوامُ[1]، وكذا لإفادةِ أنَّ جوابَ الشَّرطِ، وهو الفرقانُ الَّذي يهدي إلى الحقِّ، وتكفيرِ السَّيِّئات ومغفرةِ الذُّنوب لا يمكنُ أن يحصلَ إلّا بحصولِ فعلِ الشَّرطِ، وهو الاتِّصافُ بالتَّقوى؛ لأنَّهُ مبنيٌّ عليهِ، وفي هذا إفادةٌ بأنَّ ذلكَ سنَّةٌ إلهيَّةٌ لا تتخلَّفُ.

فائدةُ ذكرِ المفعولِ:

ذُكِرَ الاسمُ الجليلُ؛ لتربيةِ المهابةِ والتَّعظيمِ في قلوبِ المؤمنينَ، ولإدخالِ الأُنسِ بسماعِ اسمهِ، ولمراعاةِ مقامِ التَّعظيمِ الَّذي دلَّ عليهِ أسلوبُ النِّداء، والعطاءِ العظيمِ الَّذي يعدُّهُ اللّهُ لمن يتَّقيه من الفرقانِ الهادي، وزادِ تكفيرِ الخطايا ومغفرةِ الذُّنوب، وزادِ الأمل بالفضلِ العظيم.

التَّصريحُ بالاسمِ الجليلِ يحقِّقُ الأنسَ والمهابةَ والثِّقةَ بوعدهِ

فائدةُ التَّعبيرِ بفعلِ ﴿يَجْعَل﴾:

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿يَجْعَل﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّه لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو أعمُّ من فعَلَ، وصَنَعَ، وسائرِ أخواتها، ولذا فالجعلُ في اللُّغةِ فيه معنى التَّهيئةِ والتَّضمينِ والتَّبعيَّة، وإحداثِ شيءٍ من شيءٍ وتكوينهِ منه[2]، وهذا فيهِ إشارةٌ إلى أنَّ إيجادَ النَّصرِ والنَّجاة والهدايةِ والتَّوفيقِ والنّورِ الَّتي أكرمَهم اللّه بها كانَ نتيجةَ وجودِ التَّقوى والالتزام بأوامرِ اللّهِ وعهوده، أي: إنَّ استخدامَ هذا الفعلِ ناسبَ أسلوبَ الشَّرطِ في الآيةِ، بخلافِ بقيَّةِ الألفاظِ مثلَ (خلق وصنع وفعل وغيرها)، فإنَّها لا تناسبُ المعنى المراد بدقَّةِ هذا اللَّفظِ، قال أبو السُّعودِ: "﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾ بسببِ ذلك"[3].

(يجعلُ) لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وتتحقَّقُ فيه موافقةُ المبنى للمعنى

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

قدَّمتِ الآيةُ الجارَّ والمجرور ﴿لَّكُمْ﴾ على المفعولِ به ﴿فُرْقَانًا﴾؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(2) الراغب، المفردات، ص: 196.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18.

تعجيلُ المسرَّةِ مطلبٌ نفسيٌّ وترغيبٌ رحمانيٌّ

لإفادةِ الحصرِ والقصرِ، أي: يجعلُ لكم - أيُّها المؤمنون - لا لغيركم فرقانًا، اهتمامًا وعنايةً بشأنِهم، وتنبيهًا على علوِّ قدرِهم، وتعريضًا بما يقابلُهم من الكافرين بأن ليس لهم من ذلك شيءٌ.

وفي هذا التَّقديمِ كذلك تعجيلُ المسرَّةِ والبشرى بالتَّوفيق والنَّصر منه سبحانه، وإشارةٌ لما يحملُه الفرقانُ من نفعٍ وخيرٍ وهدايةٍ وسرعةِ تحقُّقٍ، يقول ابن عاشور: "قد أشعرَ قولُهُ لكم: إنَّ الفرقانَ شيءٌ نافعٌ لهم"[1].

سرُّ اختيارِ الألفاظِ:

الفرقانُ لفظٌ عامٌّ يدخلُ فيه خيرُ الدُّنيا والآخرة

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ ﴿فُرْقَانًا﴾ على لفظِ (نصرًا)؛ وذلك لاتِّساعِ دلالةِ مفردةِ الفرقانِ في المعنى ما لا تتَّسعُ له دلالةُ لفظِ النَّصر، بل إنَّ الفرقانَ في الآيةِ يشملُ النَّصرَ وزيادة، وهذا من تمام الفصاحةِ، قال ابنُ عاشور: "ولعلَّ اختيارَهُ هنا لقصدِ شمولِهِ ما يصلحُ للمقامِ من معانيهِ، فقد فُسِّرَ بالنَّصرِ وبالمخرج وبالغلبةِ، وبالعزَّةِ وبالتَّمييزِ بينهم وبين الكفّارِ في الأحوال الَّتي يستحبُّ فيها التَّمايز في أحوالِ الدُّنيا الظّاهرة، كما يشملُ أحوالَ الدُّنيا القلبيَّةَ المستترةَ، أي: أحوالُ النَّفسِ من الهداية، والمعرفةِ، والرِّضا، وانشراحِ القلبِ، وإزالةِ الحقدِ والغلِّ والحسدِ بينهم، والمكرِ والخداع وذميم الأخلاق[2]، ويشمل كذلك أحوالَ الآخرةِ فرقانًا بالنَّعيمِ المقيم، والثواب العظيمِ لأهل الإيمان، والعذابِ الشَّديد والمقتِ الكبيرِ لأهلِ الكفر[3]، وممّا يدلُّ كذلك على عمومهِ أنَّ من أسماءِ القرآن الفرقانَ؛ لأنَّهُ يفرِّقُ بين الحقِّ والباطل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/326.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4675.

براعةُ الإطْنابِ:

في مقامِ كثرةِ العطاءاتِ تحسُنُ كثرةُ الإطناباتِ

آثرتِ الآيةُ أسلوبَ الإطنابِ للإشارة إلى مزيدِ العطاءِ الذي تشيرُ إليهِ كلُّ لفظةٍ من ألفاظِ التَّركيبِ سواءٌ بصيغتِها أم بمادَّتِها من (يجعل) و(لكم) و(فرقانًا)، كما أنَّهُ يتناسبُ مع مقامِ كثرةِ العطاءاتِ الَّتي قصدَها نظمُ الآيةِ ومضمونها؛ فقدِ اشتملت على الفرقانِ والتَّكفيرِ والمغفرةِ وعطاءات أخرى تشيرُ إليها خاتمةُ الآيةِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

نكتةُ ذكرِ المفعولِ:

مغفرةُ الذُّنوبِ أكثرُ جريًا في الطَّلبِ والوعدِ

ذُكِر مفعولُ ﴿وَيُكَفِّرۡ﴾ وهو ﴿سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾، ولم يُذْكَرْ مفعولُ ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾؛ وذلك للاحتمالاتِ الآتيةِ:

الأوَّل: إمّا تفضُّلًا ورأفةً ورحمةً بالمخاطبينَ؛ ذلك أنَّ السَّيِّئَةَ هي الشَّيءُ الذي يسوؤكَ، ويسيء إليك، وقد يكونُ طارئًا، أمّا الذَّنبُ؛ ففيهِ معنى الالتصاقِ، ومنه أُخِذَ ذنبُ الحيوانِ لالتصاقِه بهِ، فالسَّيِّئَةُ سريعةُ المحو، أمّا الذَّنبُ؛ فيلتصقُ، ولذا كان الغفرانُ فيه معنى القطعِ، وهو أقوى من التَّكفيرِ، حتَّى في جذرِهِ (كفر) و(غفر)؛ إذ نلحظُ أنَّهما يختلفان في كونِ الغينِ أقوى من الكافِ، كما أنَّ الذَّنب أشدُّ من السَّيِّئة؛ فالسَّيِّئاتُ تُكفَّرُ؛ إذا اجتُنِبَتِ الكبائِرُ، فلمّا كانتِ السَّيِّئةُ طارئةً، وأخفَّ من الذَّنبِ الملتصقِ، وسريعةَ المحوِ؛ ناسبَ أن يذكرَها، ولا يذكر الذَّنب رحمةً بعصاةِ المؤمنين.

الثاني: إمّا لكونِ السَّيِّئات -وهي الصَّغائرُ واللَّمم على قولٍ[1]- أكثرَ من الذُّنوبِ، وكثيرة الوقوعِ من النّاس، بخلافِ الكبائرِ، فالوقوعُ فيها نادرٌ، فذكرَ السَّيِّئاتِ حتَّى لا يُستهانَ بها، فتتحوَّلَ إلى كبائِرَ، ولأنَّ الإنسانَ لا يدري ما الَّذي يُدخلُهُ النّارَ[2].

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/89.
(2) السامرائي، لمسات بيانية لسور القرآن الكريم: 5/155.

الثّالث: لأنَّ تكفيرَ السَّيِّئات أقلُّ دورانًا من مغفرةِ الذُّنوب، وما كان كذلك كان التَّنبيهُ عليه أولى من التَّنبيهِ على ما هو كثيرُ الدَّورانِ في الكتابِ وعلى ألسنةِ العبادِ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

التَّعجيلُ بالبُشرى دليلُ حبٍّ وأمارةُ رحمةٍ

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَنكُمْ﴾ على المفعولِ بهِ ﴿وَيُكَفِّرْ﴾ إشارةً إلى سرعةِ تكفيرِ السَّيِّئات، والتَّعجيلِ بهذهِ البشرى والمسرَّة، وبيانًا للاهتمامِ والعنايةِ بهم، وأنَّه خصَّهم بهذا الأمرِ، وإظهارًا لمدى حبِّه لعبادهِ وتلطُّفِه بهم، وإن أذنبوا، فمن رحمتِه أنَّهُ يتفضَّلُ بالمغفرةِ وإبدالِ السَّيِّئاتِ حسناتٍ.

بلاغةُ ترتيبِ المعطوفاتِ:

معظمُ النّارِ من مُستصغرِ الشَّررِ

الانتقالُ من الأدنى والأكثرِ إلى الأشدِّ والأقلِّ، فالمغفرةُ أقوى من التَّكفيرِ، والذَّنبُ أشدُّ من السَّيِّئة، وهذا التَّدرُّج يناسبُ حالَ الإنسان، فالصَّغائرُ منه أكثرُ، والتخلُّص منها أسهل، وهي طريقُ الوقوعِ في الكبائر، والتخلُّص منها طريقُ الحفظِ والوقاية من الكبائر.

بلاغةُ الوصلِ بالواو:

عطاءاتٌ لا يُغني أحدُها عن الآخرِ؛ إذْ كلُّها جوابٌ لشرطِ التَّقوى

عطفَ البيانُ القرآنيُّ الجملتين: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾ و﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ على جملة ﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾، وهي جملٌ خبريَّةٌ بحرف العطف الواو؛ لأنَّها جملٌ متغايرةٌ لفظًا، مترابطةٌ معنًى؛ إذ الجامعُ بينها أنَّها كلَّها من ثمراتِ تقوى اللّهِ تعالى، قد جاءت جوابًا لفعل الشَّرطِ، فلا يستغني أحدُها عن الآخرِ، ولا يقومُ أحدُها مقامَ الآخرِ وبدلًا عنهُ، كما يجمعُ بينها أنَّ أفعالَ الجملِ الثَّلاثِ بصيغة المضارع، وقد اتَّحدت في المسندِ إليه، وهو الاسمُ الجليلُ.

بلاغةُ الاكتفاءِ بحَذْفِ المفعولِ:

تتنوَّعُ نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿وَيَغْفِرْ﴾ وفقَ معنى التَّكفيرِ والمغفرةِ، فإن كان مفعولُ التَّكفيرِ والمغفرةِ واحدًا، أي: أُريد بالتَّكفيرِ السَّترُ في الدُّنيا،

وبالغفرانِ عدمُ المؤاخذة بها[1]، كانت نكتةُ الحذفِ هنا الاختصارَ؛ إذ ما سبقَ من كلامٍ يدلُّ عليهِ، وهو قولهُ تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، فهي محمولةٌ على الاكتفاءِ، فإذا ذُكر مفعولُ ﴿وَيُكَفِّرْ﴾؛ اكتُفي به عن مفعولِ ﴿وَيَغْفِرْ﴾ للعلمِ بأنَّ الغفرانَ يكونُ للذُّنوب.

الإشارةُ بالمذكورِ مغنيةٌ عن المحذوفِ عند تحقُّقِ العلمِ بهِ

وإن اختلفَ مفعولُ التَّكفيرِ عن المغفرةِ، بأن كان المقصودُ بتكفيرِ السَّيِّئات تكفيرَ الكبائر وبمغفرة الذُّنوب الصَّغائر[2]، كما هي عادةُ القرآنِ في جعلِ المغفرة للذُّنوب، فإنَّ النُّكتةَ هنا كذلك الاكتفاء، إذ ذكرُ تكفيرِ الكبائرِ يدلُّ على ما يقابلُها، وهو مغفرةُ الصَّغائرِ.

وإن كان المقصودُ من السَّيِّئاتِ الصَّغائرَ، ومن المحذوف الكبائرَ؛ فإنَّ حكمةَ الحذفِ هنا هي الإعظامُ المستفادُ من الإبهامِ، أي: أبهمها لخطورةِ أثرِها.

بلاغةُ التَّذييلِ بالفاصلةِ:

ذيَّلَ البيانُ الإلهيُّ بهذهِ الجملةِ لأغراضٍ عدَّةٍ، منها: تكميلُ المعنى؛ إذ إنَّ هذا التَّذييلَ "كنايةٌ عن حصولِ منافعَ أخرى لهم من جرّاءِ التَّقوى"[3].

العطاءُ العميمُ هو الَّذي لا يعطيهِ إلّا الرَّبُّ الكريمُ ذو الفضلِ العظيمِ

وكذلك للاختصارِ؛ إذ لا يحدُّ عطاءَهُ كلماتٌ، فذيَّل بما يدلُّ على كثرةِ العطاءِ لأهلِ التَّقوى، بذكر الاسمِ الجليلِ الَّذي يدلُّ على العظمةِ، وبوصفِ فضلهِ وعطائهِ بالعظمةِ، وبالتَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ الَّتي تدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، فإذا كان المعطي هو اللّٰهُ، وإذا وُصف عطاؤهُ بالعظمةِ؛ فأنَّى لكلماتٍ أن تتَّسعَ لعطائهِ؟

والتَّعليل لما قبلَهُ، والتَّنبيه على أنَّ ما وعدَهُ اللّٰهُ تعالى لهم على

(1) قال ابن عاشور: "قيل: التكفير الستر في الدنيا، والغفران عدم المؤاخذة بها "، يُنظر: التّحرير والتّنوير: 9/326.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/326.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.

التَّقوى تفضُّلٌ منه وإحسانٌ، لا أنَّه ممّا توجبهُ التَّقوى، كما إذا وعدَ السَّيِّدُ عبدَهُ إنعامًا على عملٍ[1]، بل إنَّهُ تفضَّلَ بهِ عليهم بدونِ واسطةٍ وبدونِ التماسِ عِوضٍ[2].

والإشارةُ إلى تفضُّلِه سبحانه بما رزقَ أهلَ الإسلامِ من علوِّ المنزلةِ وانتشار الهيبةِ وفخامةِ الأمر في قلوبِ المخالفين، كما هو مشاهدٌ رغمَ ما كانَ فيهم من نقصٍ[3].

نكتةُ إظهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

إظهارُ الاسمِ العظيمِ يبعثُ في النُّفوسِ الأملَ بالفضلِ العظيمِ

أتتِ الآيةُ بالاسمِ الظّاهرِ ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ لزيادةِ التَّقريرِ والإيضاحِ، وليبعثَ في النُّفوسِ الأملَ بفضلِ الإلهِ العظيمِ، ولأنَّ لفظَ الجلالةِ (اللّه) جامعٌ لكلِّ صفاتِ الكمالِ الَّتي تشتملُ على كلِّ أنواعِ العطاءِ والفضلِ، من عطاءِ الرَّحمةِ وعطاءِ المغفرةِ وعطاءِ السَّترِ وغيرها.

سرُّ الإيثارِ اللَّفظي:

عطاءُ اللهِ بالفضلِ لا بالعدلِ وبالإحسانِ لا بالميزانِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلْفَضْلِ﴾ على (الأجر) لِلَطائفَ عديدةٍ، منها: الفضلُ أوسعُ دلالةً، فالفضلُ يشملُ الأجرَ وزيادةً، فهو في اللُّغةِ زيادةٌ من مادَّةِ الشَّيءِ متميِّزةٌ عنهُ، كما أنَّ الأجرَ يكونُ بمنزلةِ تعويضٍ يتلقّاهُ العاملُ جزاء ما بذلَهُ من كدٍّ وجهدٍ، أمّا الفضْلُ؛ فقد لا يسبقُهُ عملٌ، وإنَّما يكون تفضُّلًا وإحسانًا من اللّهِ سبحانه.

والفضلُ أنسبُ للسّياق، فهو وصفٌ للّهِ تعالى المعطي الكريم، كما أنَّهُ جاءَ في سياقِ العطاءِ الكثيرِ الَّذي لا ينتظرُ مقابلًا، بل يكونُ رغمَ وجودِ التَّقصيرِ، فيكونُ تكفيرُ الخطايا ومغفرةُ الذُّنوب من عطاءاتِه.

ومن اللّطائف أيضًا التَّفنُّنُ في الكلامِ؛ إذ سبقَ ذكرُ الأجرِ العظيمِ في الآيةِ السّابقةِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/14.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 9/197.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 3/209.

بلاغةُ النَّعتِ بالعظيمِ دونَ الكبيرِ:

الاتِّـــســـاقُ الـسّـيـاقـيُّ يقتضي الوصفَ بالعظيمِ

اتِّساعُ دلالةِ مفردةِ (العظيم) في المعنى ما لا تتَّسعُ له دلالةُ (الكبير)؛ فالعظيمُ في اللُّغة: صفةٌ مشبَّهةٌ لمن اتَّصفَ بالعظمةِ، والعظمةُ: معناها الكبرُ والاتِّساعُ وعلوُّ الشَّأنِ والارتفاع، يقال: عَظُمَ أي: كَبُرَ واتَّسعَ وعلا شأنُهُ وارتفعَ، وكلُّ هذهِ معانٍ تراعى في اسمهِ تعالى "العظيم"، وفي معنى التَّعظيم يأتي اسمُهُ تعالى الكبيرُ، وكذا اسمُهُ الواسعُ، وكذا يأتي معنى التَّبجيلِ للّهِ ﷻ.

مناسبةُ سياقِ الآياتِ الَّتي تتحدَّثُ عن عظمةِ اللّهِ وعظمة عطائه، ومناسبةُ فاصلةِ الآيةِ الَّتي قبلها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، فمَن عندَه الأجرُ العظيمُ هو ذو الفضلِ العظيمِ سبحانه.

لمّا تعدَّدَ الفضلُ، وذكرَ منه سبحانه: ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾، وأُسندَ مباشرةً إلى اللّهِ تعالى؛ استعملَ كلمةَ العظيمِ.

ورد قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ في القرآنِ ستَّ مرّاتٍ، ولم يردْ بلفظِ الكبيرِ.

بلاغةُ الفاصلتينِ:

الفاصلةُ متوازيةٌ، حيثُ إنَّ اللَّفظتين اتَّفقتا في الوزنِ والحرفِ الأخيرِ، وخُتِمتِ الآيتانِ بنفسِ الكلمةِ، ودلَّتا على غايةِ العظمة، لكن في الأولى جاءتْ نكرةً؛ لعظمةِ ذلك الأجرِ الَّذي لا يدركُ كُنْهَه إلّا مُعطيه، وجاءتِ الكلمةُ في الثّانية معرفةً، ليدلَّ على أنَّ تلك العظمةَ قد بلغتْ عظمةً ليس بعدها عِظَم، إذ العظيمُ لا يُعظِّمُ إلّا عظيمًا.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»